٢ ـ جامع احمد ابن طولون

[حديث ألقى فى نادى النجادة في ليلة القدر]

للأســـتاذ أحمد رمزى بك

قنصل مصر فى سوريا ولبنان

إنه لمن غير المستصعب والمستغرب أن يقيم رجل العصبية دولة بين أهله وعشيرته ، ولكن أن يخرج رجل وحيد ينحدر من سلالة فى أواسط آسيا ، فيؤسس ملكا عريضاً يضم مصر والشام والثغور والعواصم ، ويسيطر بذكائه وفطنته فيقود ، وينتصر ، وتخضع له الخاصة والعامة ، وتدين له الرقاب ويقارع أكبر سلطة شرعية ، ذلك أمر لا يتم إلا لرجل قد امتاز عن كافة الناس وخصته العناية بصفات من الأخلاق والمزايا النفسية لا تتوفر فى غيره

ويذكرنى ذلك بما كتبه أحد مفكرى الغرب عن عظماء الرجال فى القرن العشرين إذ قال : إن هناك قوات جامحة من قوى الطبيعة تسبح فى فضاء هذا الكون ، فتصيب الرجل العظيم الذى هيأته العناية لدور فاصل فى تاريخ الإنسانية ، فتراه قد استيقظ إذ لمسته وأفاق فقبض على هذه القوى بكلتا يديه ، فدانت له الجماعات وخضعت لمشيئته ، فإذا هو على رأسها يسخر هذه القوى ويدفعها إلى الأمام فيغير مجرى الحوادث ويكتب التاريخ كما يشاء ، ذاكم هو أبو العباس احمد بن طولون ، رجل من عظماء التاريخ العربى ملك مصر وقاد وانتصر

ولسنا فى موضوع الحديث عنه ولا عن أعماله لنؤرخ له ، وإنما نحن فى مقام التعريف لذلك الرجل الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ، وإذا كان لى أن أختم هذه الكلمة وما أصعب على النفس ختمها فما لى سوى ترديد قول شوقي فى شعره الخالد عن الزعيم مصطفى كمال إذ ينطبق على أميرنا ابن طولون :

هو ركن مملكة وحائط دولة وقريع شهباء وكبش نطاح

وأنتقل الآن إلى الجزء الثانى من هذه المؤانسة فأحدثكم عن زيارتى لجامع ابن طولون

كان ذلك فى خريف العام الماضى ، حينما حللت بالقاهرة المعزية ، وكان وقت الأصيل حينما توجهت إلى جامع ابن طولون وارتقبت ذلك لأرى أثر أشعة الشمس وقت غروبها ، وما تلقيه من روعة ، على منظر القاهرة ، فإن رؤية مآذنها العالية وقباب مساجدها التى تعد بالمئات مما يدخل فى قلبى رهبةً وإحساساً فائضاً وحنيناً إلى الماضى وعوداً إليه

ولما صعدت إلى قمة المنارة نظرت إلى أطراف المدينة من مشهد السيدة نفيسة والإمام الشافعي ، إلى القلعة فالسلطان حسن والرفاعى ، ثم إلى جامع الجاولى حيث أعجبنى هذا التناسق البديع الفائق الحد الذى يبدو بالنظر إلى القبتين المتجاورتين إذ هما قطعتان من قطع الفن العربى الخالد

ولا أحدثك عن الذكريات التى غمرتنى ساعتئذ وإنما تساءلت كيف حفظت العاصمة كل هذا التراث العربى العظيم ؟ وكيف خرج من كل أدوار التاريخ خالداً ، وهو يدافع المحن ويسمو على طوفان الحوادث ؟

ولا بأس من إيراد حديث دار مع سيدة من كبريات سيدات الغرب ، وقت أن نزلت من المنارة واتجهت إلى صحن الجامع ، فقد كانت جالسة على كرسى فحيتنى أحسن تحية ، ثم قالت لى كالمعاتبة لغيرى :

« متى بلغ اهتمامكم بآثاركم العربية هذا الحد حتى أتيت من بيروت لتقضى أجازتك السنوية ، ووقت راحتك فى منادمة أطلال الماضى وما درس من آثاره ؟ »

قلت : بلى أحن إلى هذه الجدران ، وأعرف نقوشها ، وهذه المأذنة والمحاريب وهذا المنبر الذى وضعه حسام الدين لاشين ، وما شعرت يوماً بأنى غريب عنها ، بل هى عندى صورة من صور الماضى الباقى الذى يفيض حياة ، ويلازم فكرى ، واستمد منه قوة على قوة ، وأسير فى هداه ، وأستعير منه الحجة لأقرع بها الحجة ...

ولما تركتها متجهاً إلى الأروقة قلت يا لله ! إن المساجد له ، وهي مع ذلك تعلو علواً كبيراً ، ليغمرها العز والسؤدد والمجد ثم تهبط إلى التدهور والتفكك والنسيان حتى يقيض الله لها من ينتشلها من وهدتها . فلنتعرف إلى بعض الشيء من عظمة هذه الجدران ...

لقد حمل هذا الثرى الذي أسير عليه ابن طولون وملكه ، وطالما ازدحم هذا الصحن بالأمراء والجند والعامة ، ولو نطقت هذه الجدران لحدثتنا حديث رجال الفقه والتفسير والحديث الذين اجتمعوا هنا لسنين خلت . ولأعادت علينا آيات الكتاب الكريم التي رتلت أصوات المؤذنين والشيوخ والقراء التي ذهبت في أعماق الماضي البعيد . أين صناديق المصاحف الطولونية والشمعدانات التي وضعها الحاكم بأمر الله ؟

أين القناديل المعلقة بالسلاسل التي وصفها المؤرخون ؟

أين الأبسطة والفرش من عبدانية وسامانية التي أمر بها ابن طولون وخص بها المسجد ؟

أين جماهير المصلين وحلقات الدرس والتلاوة ؟

ووقفت أمام المحراب الكبير ، وقلت هنا صلى بالناس ، عندما كمل الجامع ، القاضي بكار بن قتيبة إماماً ، وهو مفخرة من مفاخر القضاء المصري في القرن الثالث ، وهدية البصرة لمدينة مصر

وعلى منبر في مكان هذا قام أبو يعقوب البلخي يوم الافتتاح خطيباً ؛ ثم جاء الربيع بن سليمان ، وهو من تلامذة الشافعي رضي الله عنه ، بل من أحبهم إلى قلبه ، فافتتح دروسه في إملاء الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام

« من بنى لله مسجداً ولو كفحص قطاة ، بنى الله له بيتاً في الجنة » .

ففي أي ركن من هذه الأركان كان هذا الدرس ؟

وأين اللوحة التذكارية لهذا اليوم ؟

لا بد أن يكون مكان هذا الدرس على مقربة من المحراب الكبير ، فلنتمهل ولنترحم على صاحب الدرس وعلى شيخه وأستاذه .

(للحديث صلة)

أحمد رمزي

وزارة الدفاع الوطني

إدارة المستخدمين

إعلان

تعلن وزارة الدفاع الوطني عن حاجتها إلى مختزل للغة الإنجليزية — ويجيد الكتابة على الآلة الكاتبة بنوعيها — وسيجرى اختبار مقدمي طلبات الالتحاق لهذه الوظيفة بمعرفة مدرسة الهندسة العسكرية التابعة لسلاح المهندسين والأشغال العسكرية بالوزارة وسيمنح من يقع عليه الاختيار من بين الناجحين في الامتحان في الدرجة الثامنة الماهية المقررة لشهادته يضاف إليها جنيه وخمسمائة مليم شهرياً مرتب اختزال وإن كان غير حاصل على مؤهلات دراسية فسيكون تعيينه بمكافأة شهرية قدرها ٥ جنيهات يضاف إليها مرتب اختزال قدره جنيه وخمسمائة مليم شهرياً

فعلى من تتوافر فيه الشروط اللازمة أن يتقدم بطلبه في ميعاد غايته ٢٠ / ١١ / ٩٤٣ برسم حضرة صاحب العزة مدير سلاح المهندسين والأشغال العسكرية بوزارة الدفاع الوطني بشارع الفلكي . ١٣٥٨